آداب النفوس

تصنيف الامام

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي

٢٤٣ هـ

ويليه

كتاب التوهم

دراسة وتحقيق

عبد القادر أحمد عطا

مؤسسة الكتب الثقافية

مُلتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الثانية

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الصنائع - بناية الإتحاد الوطني - الطابق السابع شقة ٧٨
هاتف المكتب: ٣٤١٣٣٤
ص.ب ١١٤/٥١١٥ - برقياً: الكتبكو -
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

فقه أعمال القلوب

في عصر الرسول ﷺ:

بعث الرسول ﷺ وكان الإنسان قد أخلد إلى الأرض بكل همته ومشاعره ومواهبه التي كرمه الله من أجلها، فعبد ما في الأرض، وعمل لزينة الأرض، واستعبد لما في الأرض وما على الأرض. وكانت الرسالة التي حققها الرسول ﷺ هي: «رفع همة الإنسان من التسفل إلى التسامي، أو من الزيف إلى الحقيقة». فعلم الناس أن يتوجهوا بعباداتهم إلى الله، وأن يعملوا في عمران الأرض وأمور المعاش يبتغون بذلك وجهاً من وجوه رضوان الله، فتوحد تحت لواء الإسلام كل الإنسان المسلم في الباطن الذي يقوده القلب، وإن كان في ظاهره منقسماً إلى ظاهر وباطن، ولكنه في الحقيقة كان يعتصم بحركات القلب في عمل العقيدة والعبادة القلبي، وعمل الجوارح في مظاهر العبادة وعمران الحياة على السواء.

ولقد حفل القرآن الكريم بالحث على ربط العمل بالقلب في جميع الأعمال وتخليص القلب من كل النوايا إلا نية العمل لله دون طلب جزاء ولا شكر من أحد. وكانت عناية القرآن بهذا الأصل مرتبطة بتصفية العقيدة من شوائب الشرك الجلي والخفي، فقال تعالى: ﴿... **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾. ويروي الحاكم النيسابوري أن هذه الآية نزلت حينما سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، يعني: يريد الله بجهاده، وفي الوقت نفسه يريد أن يعرف الناس شجاعته وشدة بلائه في الحرب.

ومن هنا تقرر في الإسلام أن تحديد الإرادة من العمل يجب أن يرتبط بالعمل. فيرتبط القلب بالجوارح في العمل، وينقضي عمل الجوارح. ولكن عمل القلب يبقى حارساً أميناً على عقيدة المسلم أن تزيغ فيبطل العمل بعد انقضائه على وجه من وجوه

الصحة الشرعية. أي أن تحديد إرادة القلب بالعمل يجب أن ينطلق من الإيمان بالوحدانية التي هي صميم الإسلام وصلبه وعموده، وأن الثنائية في الإرادة كما ظهرت من استفتاء الرجل لرسول اللّه ﷺ هي صورة الشرك الثيرة، يتعدى خطرها إلى نفس العقيدة، فما الشرك إلا الوجه الصريح للرياء، وما الرياء إلا هدم لأصل الإيمان باللّه الواحد الأحد.

ولقد أدرك رسول اللّه ﷺ أن علة الرياء في القلب ودوافعه إنما هي طلب عزة المال والجاه في الدنيا، فقرر أن التمكين في الأرض، ورفعة الشأن والعزة، أمور مضمونة لهذه الأمة، ومضمون دوامها إذا انطلقت أعمالها من نبع الوحدانية في العقيدة وفي مقاصد الأعمال، ويروي في هذا الصدد أبي بن كعب عن رسول اللّه ﷺ قوله: «بشر هذه الأمة بالثناء والرفعة في الدين. والتمكين في الأرض، والنصر، فمن عمل عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». ويؤكد هذا المعنى قول اللّه تعالى: **﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾**. وما الإرادة إلا عمل قلبي خالص يمكن أن يواكب عمل الجوارح يوجهه نحو الحق أو نحو الضلال.

وقد أكد رسول اللّه ﷺ صفة الدوام لعمل القلب في رواية أبي داود عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال: «إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك اللّه صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك اللّه مرائياً مكاثراً».

فالشرك إذن لا يقتصر على عبادة الوثن أو البشر مع الله، وإنما ذاك شرك الظواهر، وهناك شرك السرائر الذي أشار إليه رسول اللّه ﷺ في رواية محمود بن لبيد رواها عنه ابن خزيمة وابن ماجه والبيهقي بألفاظ متقاربة إذ قال: «أيها الناس.. إياكم وشرك السرائر. قالوا: يا رسول اللّه، وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر».

ورغم ما قال بعض العلماء: من أن شرك الرياء في العمل لا في العقيدة، فإننا نرى أن شرك الرياء ينتهي إلى العجب بالأعمال، والعجب يدمر العقيدة من أساسها إذ يرى المعجب بعمله المنة منه في العمل، واستقلاله به عن عون اللّه تعالى مما يجعل شرك الرياء ذريعة مباشرة لشرك العقيدة، ألا ترى أن المرائي الممعن في الرياء يصل إلى حال تنعدم فيها عنده مشاعر العقيدة ووازعها، فلا يخضع إلا لهوى نفسه؟ وعابد الهوى أحط من الحيوان الأعجم كما قال تعالى: **﴿أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾**.

ولم يغفل رسول اللّه ﷺ الصورة المثلى للمؤمن المخلص البريء من النفاق والرياء

فقال فيما أخرجه ابن ماجه والبيهقي والحاكم عن عمر: «اليسير من الرياء شرك. . . إن اللّه يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة». والغبراء المظلمة: الفتنة العمياء.

هكذا كان الرسول ﷺ على مستوى مسئوليته العظمى في تبليغ الرسالة، وفي بيان مقاصد القرآن، من فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح، فكما أن لأعمال الجوارح شروطاً للصحة والقبول فكذلك أعمال القلوب لها نفس الشروط في الصحة والقبول، وكان ﷺ في قمة المستويات الفكرية العالمية حين صور مستقبل العالم الإسلامي حينما يسيطر الرياء القلبي على أعمال الناس الظاهرة بالجوارح، فقال فيما أخرج الترمذي عن أبي هريرة: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون (يسرقون) الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول اللّه عز وجل: أبي يغترون أم عليّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيراناً».

وهذه الصورة ذات دلالة واضحة على أن هناك مشقة في الحفاظ على القلوب من طوارق الرياء والنفاق، وإن تسلل الرياء إليها أمر محتم إذا لم تكن هناك مذاكرة دائمة، ومراقبة صارمة، وتفتيش دقيق في كل خفقة يخفقها القلب وفي كل خاطر يساوره.

ولقد كان الصحابة رضوان اللّه عليهم والجيل الأول من التابعين، لا يفترون عن التذكر والتدبر، ومحاسبة النفس، وتفتيش القلب، والرقابة عليه، حتى بلغ من أمر حنظلة الأسدي أن شك في أيمانه حينما لاحظ أنه يكون في مجلس الرسول ﷺ حاضر القلب، حديد البصيرة، فإذا انقلب إلى أهله، ومارس حياته الخاصة نسي ما كان يحس به ويعانيه، فشاور أبا بكر في هذا الأمر، فأخبره أبو بكر أنه يجد مثل ما يجد، وعليهما أن يستفتيا رسول اللّه ﷺ، ولما ذهبا إليه طمأنهما إلى أنهما بريئان من النفاق، ولكن «ساعة وساعة»: يعني: لا بد من ترويح النفس بالمباح، حتى لا تقعد بصاحبها عن العمل.

لم يكن هناك انفصال إذن بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح، بل كانت الرابطة وثيقة بينهما، والعناية بليغة بهما، ولم يكن هناك فصام في شخصية الإنسان المسلم بحيث يكون قلبه في واد وجوارحه في واد آخر، ولهذا لم تكن بالمسلمين حاجة إلى مزيد من الدراسات والتفاصيل حول أعمال القلوب، لا سيما وأن الحياة لم تكن قد أصيبت بزحام

المظاهر، وظواهر الترف، وتشابك المصالح وتعقدها، وخفاء أعمال القلوب تبعاً لهذا التعقيد في وسائل العيش.

أي إنه لم تكن هناك أمية في فقه أعمال القلوب ولا في أعمال الجوارح في عهد رسول اللَّه ﷺ، حتى يحتاج الأمر إلى ظهور طائفة تنفرد بدرس أعمال القلوب، وطائفة بدرس أعمال الجوارح، بل كان العلم فيهما مجتمعاً وصحيحاً ودقيقاً، لا يحتاج إلى مزيد. والمتتبع للسنة النبوية يستطيع أن بعد الحالات التي عرضت على رسول اللَّه ﷺ للاستفتاء في أعمال القلوب، وأغلبها كانت في خوالج تساور قلوب الغزاة والمجاهدين إذ هو الموقف الذي أبيح فيه ما لا يباح في غيره، كالتبختر بين الصفوف مثلاً.

وإلى جانب هذه الدقة البالغة في تحديد مشاعر القلوب عند العمل حتى تتفق مع مقصد الشريعة من العمل، كانت هناك دقة بالغة كذلك في الجانب الشكلي للشريعة، ورأسها قوة التمسك بالسنة، وكراهة البدعة، حتى لقد قبض عمر بن الخطاب على رافع عقب الصلاة، وذهب به إلى رسول اللَّه ﷺ، لأنه سمعه يقرأ سورة الفرقان على حرف لم يعرفه عمر عن رسول اللَّه ﷺ، وخشية أن تكون البدعة قد أطلت برأسها، لا سيما وأن الرسول ﷺ كان يحذر من البدعة وهـو في حال من الإشفاق لا ينساها أحد من أهل عصره رآها أو بلغته، حتى بلغتنا فيما أخرجه مسلم عن جابر أنه كان يعلو صوته، وتحمر عيناه، ويشتد غضبه، كأنه منذر جيش وهو يقول: «أما بعد... فإن خير الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، أنا أولى بكل مؤمن».

ونظراً لارتباط البدعة بعبادة الهوى، وارتباط عبادة الهوى بالنفس ثم بالقلب، فقد ارتبطت البدعة بفساد العقيدة في قوله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند اللَّه من هوى متبع». وما ذاك إلا لأن كل بدعة إنما هي داء يقضي على سنة من السنن، حتى لا تبقى إلا البدع التي أطلق العلماء على أصحابها اسم (أهل الأهواء).

بعد عصر الرسول ﷺ:

ومن دلائل نبوة رسول اللَّه ﷺ. ودلائل عظمة الأمية في شخصه: أنه كان شامل النظرة، بعيد مدى الرؤية للأحداث، صادق التقدير، حينما بدأ بما ستكون عليه الأمة من بعده، وقد مرت بنا صورة المجتمع المرائي بعد عصره كما صورها، وصدق فيها، والآن نراه يصور مجتمع المبتدعين الذين يقودهم الهوى الباطن من بعده فقال فيما أخرجه أبو داود وأحمد عن معاوية: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة،

وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون منها في النار، وواحدة في الجنة، وهي ما عليه الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

ولم يحدث في عصر الرسول ﷺ خطأ في تطبيق السنة، أو جنوح نحو البدعة إلا في حالات نادرة كانت عن حسن نية أهمها: ما أراد عثمان بن مظعون أن ينتهجه هو وعدد من أصحابه إذ عزموا على أن يجبوا مذاكيرهم، وينقطعوا للعبادة، ولكن الرسول ﷺ تداركهم، وبين لهم أنه ينام ويقوم، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، وختم بيانه بقوله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ومنها ما حدث من عبد اللّه بن عمرو بن العاص من ترجيح جانب العبادة وتغليبها على شئون الحياة، حتى عدل الرسول ﷺ سلوكه، وكبح جموحه بعد نقاش بين المعلم الأعظم والتلميذ الصالح.

أما بعد الرسول ﷺ فقد عاد الناس إلى الرغبة في الانقطاع للعبادة، وابتدعوا طرائق ووسائل للأذكار الجماعية في المساجد عقب الصلوات وقد شهد الحالتين عبد اللّه بن مسعود، وقام على الطائفة الأولى قائلاً: «فمن للجهاد، ومن للثغور، وما أنا ببارح حتى تخرجوا»، وقال للآخرين: «إن فعلتم فقد سبقتم سبقاً بعيداً، أو فقتم أصحاب محمد علماً». وقضى على بذور الفتنة قضاء مبرماً.

ولكن قوة الأهواء كانت تابعة لقوة أهواء الحكام في الخروج عن السمت النبوي في طريقة الحكم، ومعاملة الشعوب، حتى لقد جاروا على الأحكام الشرعية الثابتة، فقد أخذ الحجاج الجزية من مسلمي خراسان بعد إسلامهم، ولم يرفعها إلا عمر بن عبد العزيز، وحدث انحراف تمثل في بيع الفضة بالفضة بيعاً متفاضلاً في عهد معاوية، وأرسل عبد الملك بن مروان إلى غضيف الشالي فقال له: يا أبا سليمان إنا قد جمعنا الناس على أمرين؛ فقال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر، والقصص بعد الصبح والعصر، فقال عضيف: أما واللّه إنها أمثل بدعتكم عندي، ولست بمجيبكم إلى شيء منها. قال: لم؟ قال: لأني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة». فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة.

وإذا تتبعنا جهاد المعمرين من الصحابة كان عمر، وجابر، وسعد بن أبي وقاص، وأنس بن مالك، وغيرهم ضد البدع في كتب التراق، كالنفاق للفريابي، والزهد لابن حنبل، والزهد لأبي سعيد بن الأعرابي، والزهد لابن المبارك وغيرها مما جاء في المراجع متناثراً، لتبين لنا كيف انطمست حقائق المصطلحات الإسلامية من معانيها الحقيقية إلى معان سلبية وخطيرة على الإسلام ومسار دعوته.

الفصام في عصر المحاسبي:

وكان الصراع على الحكم، وشيوع الأهواء، والتلويح بالذهب، والشهوات الأخرى في عصر بني العباس سبباً رئيسياً في جذب الكثير من العلماء نحو الأضواء، وفي ظهور الطامعين في حكم دولة الإسلام من الحاقدين وتحكم هؤلاء الطامعون في الخليفة، وأجبروه على إذكاء نيران فتنة القول بخلق القرآن، وامتحان العلماء فيها، وجلد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وأعلنت المحرمات، وعطلت الحدود إلا في الحالات التي تخدم السلطة الحاكمة وأصبحت أعمال الآخرة تقصد للدنيا، حتى لقد وضع بعض العلماء أحاديث مكذوبة على الرسول ﷺ خدمة لهوى السلطان.

وكان العصر عصر استكشاف لأبعاد الشريعة وأعماقها في صورة اجتهاد من أهل الاجتهاد لتقنين الشريعة حسب تطور الحياة، ولوضع الأصول الفقهية التي تصبح أساساً للأحكام المستقبلية التي تواجه الحياة في مراحل تطورها، واجتذاب هذا العمل الضخم طائفة من كبار العلماء العاملين السائرين على محجة الرسول ﷺ؛ والجامعين لصحة العمل في القلب والجوارح على السواء، وأخصهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وتلاميذهم وسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وأمثالهما.. ولهذا لم يكن هناك متسع أمام هؤلاء العلماء ليدونوا فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح.

وكان هذا الفراغ في الدراسة، والذي لم يدوّن من علمه إلا شذرات من الحكم الجامعة نطق بها الزهاد الأوائل مثل داود الطائي، والفضيل بن عياض، ووكيع بن الجراح، وأبي إسحاق الفزاري، وأمثالهم من أهل التقى والورع، كان هذا الفراغ إلى جانب الشهوات المبذولة سبباً في تدهور وعي القلوب، حتى شاع الجهل بأعمال القلوب، لولا ظهور طوائف من الزهاد اتخذوا لأنفسهم مدارس لنشر وعي القلوب، ولكنهم تكلموا في المقامات، وتشددوا في الزهد في مواجهة الترف، حتى خلف من بعدهم خلف بذلوا جهدهم في أعمال القلوب، وأهملوا أعمال الجوارح، وعالج الخلف هذا الإهمال بمخالفات صريحة للإسلام تركزت حول أداء هؤلاء الفرائض في الكعبة وهم يقيمون في بغداد، أو أن مخاطبة الملائكة والمكاشفات السرية بين العلماء وبين الله تشغلهم عما تعارف عليه العامة من عمل الجوارح، أو من التدقيق في استيفائها من الناحية الشكلية.

وباختصار: غلب على الناس الكذب في العمل والقول الأمر الذي دفع المحاسبي إلى وضع الحق في نصابه في أعمال القلوب وأعمال الجوارح على السواء لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي الفسيح. فكان مدرسة متميزة تعني باستكشاف النفس الإنسانية ودراسة حركاتها، ووصف أمراضها وتحديد عناصر علاجها إلى جانب نشاطه في الفقه

الإسلامي والحديث وعلم الكلام، والرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق في عصره من حيث كانت المدرسة الثانية للسنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل لا تعني بتدوين الدراسات النفسية، بل عنيت بالفقه والحديث والسلوك العملي دون زيادة على ذلك.

وإلى جانب الحركة الفقهية والحركة السلوكية، كان هناك جمع من العلماء يبحثون الأحكام الشرعية التي تحفظ المسلم من أكل الحرام بعد أن قارف المحرمات الأخرى، وقد جمع المحاسبي من هذه الآراء مجموعة تلقى ضوءاً قوياً على اضطراب العصر، وحاجته إلى تدوين قواعد السلوك الصحيح، ويقول المحاسبي في هذا الصدد: «وقد تكلم طوائف من الفرق بمذاهب في المجانبة، وصفاء المطعم والملبس، يختلفون ويتقاربون، فمنهم من اختار العزلة عن الأئمة والسلطان وأعوانهم بأعيانهم، وفرقة جانبت كل من اتصل بهم، وهذه الطائفة ركبت الغلو في الدين، وقال الحسن البصري، إن المكاسب قد فسدت، خذوا منها القوت، وقال أبو وائل: إن أهل بيت بالكوفة على مائدتهم رغيف حلال لأهل بيت غرباء، وطائفة اختارت المباح من الجبال والأودية والرمال من ورق الأثل، ولقط البذر، والحشائش التي لها ثمن إذا ادخرت، فجمعوا منها لصيفهم في شتائهم، وطائفة اختارت ما ألقته الرياح، وما ظهر من الحشيش والكلأ على وجه الأرض من كلأ الصحراء إذا اشتد بهم الجوع، وطائفة اختارت المسألة لأخذ القوت منها كما سأل موسى عند الحاجة، وطائفة بالثغر والشام اختارت أن تجمع اللقاط من وراء الحصادين، وطائفة اختارت كد اليد أو ضرب السيف (وعلى رأسهم إبراهيم بن أدهم)، وطائفة اختارت الرباط، وهم مجمعون على القتال مع كل أمير بر أو فاجر».. (المكاسب ٢١١).

وكان المحاسبي واسع الأفق. شامل النظرة، لأنه كا يربط بين منهجه في الإصلاح النفسي والشرعي القائم على الكتاب والسنة وبين استعادة دولة الإسلام مجدها الحق، فقال في صدد كلامه عن سلوك الصحابة: «قد جمعت لهم الطاعة مراداتهم فيها، على قدر الإقبال عليها، وأوضحت لهم سبل الرشاد فيها، فلم يريدوا بما أدركت أيدي الظفر منهم بدلاً.. وأصبحوا في ذلك توفيقاً من سيدهم، ومعونة قائمة بالكفاية لهم، وخفي لطيف غير منقطع عنهم، فدام لهم الحال، وزكت الأعمال، ولم يجدوا عند ذلك هوى غالباً، ولا عدواً مطالباً، أمات العلم باللّه أهواءهم، وغلب لهم أعداءهم، وجمع شملهم، وأحكم أمرهم، وكان التوفيق لهم مصاحباً، وخفي اللطف من اللّه دائما، والتأييد من سيدهم مرشداً».

كان الخطر الوافد على صميم الإسلام في أعمال القلوب وأعمال الجوارح أقوى من جهود المدارس السلوكية التي ظهرت في مختلف الأقطار، ولهذا دون المحاسبي آراءه في

كتب، وكأنه كان يدرك أن التيار سوف يجترف العالم الإسلامي فيفرقه بين موجات الضلال الوافد.

كان يدرك أن العالم الإسلامي سوف يحتاج إلى كتب مدونة في أعمال القلوب، ولن تجديه المناقشات الشفوية، ولا الأقوال المتناثرة، وهو يقول في ذلك: «فجميع الخلق في فنون الطاعات، وتحذير الباطل في مذاهبه إذا جمع وألف كان أنشط لحفظه وتفهمه. لمن كان لا ينشط لأن يطلب علمه حتى يجمعه. وليس من تفرد بكتاب يقرؤه وحده متثبتاً فيه، لا يشغله عنه سبب يقطعه كمن نازع غيره. لأنه يعترض في المناظرة آفات كبيرة من العجب بالرأي».

لقد اشتغلت جماعات الصوفية من بعد المحاسبي في طريق امتدادها بالقول في المقامات والمواجيد والكرامات. ثم تطور الحال إلى ظهور أهل الفتوة واختلطوا بالشطار والعيارين. ثم ظهور «القلندرية» التي تطورت عن الملامستية، وأقدم من عرف من شيوخها قطب الدين حيدر التوني المتوفى عام ٦١٨ هـ. ويقال: أنه أباح لأتباعه تناول الحشيش، وأطلق عليه «مدامة حيدر». وصار ذلك من تقاليد طريقته مع تقاليد أخرى منها حلق الشعر من الوجه كله وعدم التقيد بالآداب الاجتماعية المعروفة وإهمال الواجبات الشرعية، ولبس جلود الضأن مما جعل التصوف ينزع نحو شكليات غامضة لمجرد جذب النفوس.

ثم كان تسلط التصوف النظري الذي كان هدفه في الحقيقة هو احتواء الفلسفات الأجنبية في نطاق الفكر الإسلامي، ولكن سطوة القول في الحقائق لا سيما الحقيقة المحمدية كانت هي الأخرى مصدراً لمتاعب فكرية هائلة إذ احتقر الصوفية من هذا النوع علماء الشريعة. وسموهم «علماء الأوراق» أو «علماء السطور»، وأطلقوا على أنفسهم «علماء الأذواق» أو «علماء الصدور». الأمر الذي نشأت من أجله عداوة بين الفريق، ورمى كل فريق صاحبه بالعظائم، ومضى كل في طريقه، حتى ظهر الغزالي، فحاول الربط بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح في كتابه «إحياء علوم الدين» الذي يعتبر امتداداً لمؤلفات المحاسبي، وإحياء لها بعد توسيع مفاهيمها وتعميقها.

ومضى العالم الإسلامي في تجربته المريرة بعد تدهور سلطان دولته، وتغير الكثير من المفاهيم والمصطلحات الإسلامية، وراح الكثيرون من المسلمين يتلمسون علاج نفوسهم الممزقة في ظلال علم النفس المستورد، ونسوا أن تراث المحاسبي يشكل مدرسة هائلة للتحليل النفسي الناجح والدقيق لا نجد منهجها في أي مدرسة من مدارس علم النفس الحديث. الأمر الذي يجعل هذا التراث ضرورة للعالم الإسلامي في بعثه الجديد. ويقظته التي شملت أقطار العالم في العصر الحديث.

عبد القادر أحمد عطا

مقدمة الطبعة الأولى

الإمام المحاسبي ومدرسته

نشأته وعصره:

أما العصر الذي عاش فيه المحاسبي فهو إبان الدولة العباسية العربية إسماً، والفارسية أو التركية فعلاً، وأما المكان فهو ما بين البصرة وبغداد، وأما خليفة المسلمين فكان الأمين ثم المأمون، ثم المتوكل فالواثق. وأما مولده فكان بالبصرة في النصف الثامن من القرن الأول الهجري.

وكانت البصرة والكوفة ـ كما هو معلوم ـ مركزين متنافسين في العلم وشتى مجالات الفكر الأخرى، ولكل منهما مذهب تدافع عنه، وتشتهر به، حتى في مسائل الزهد والورع كما أثبته المحاسبي في كتابه «المكاسب».

وكانت حضارة الإسلام في خلافة بني العباس قد تطورت إلى «مدنية» تعني بالمظاهر الشكلية للتقدم وأسلوب الحياة المترف، ويسير فيها الانحلال الأخلاقي جنباً إلى جنب مع النهضة الثقافية، وحركة الترجمة، ومدارس العلم، وجهود المؤلفين الجبارة، وإن كان الالتزام العملي بالعلم قد أصبح قاصراً على فئة قليلة من العلماء والتلاميذ، حيث اجترفت المدينة الساحرة جمهور الباقين منهم، ممن أطلق عليهم المحاسبي اسم «علماء السوء».

لقد بلغ الانحلال الخلقي، والاستهانة بالكرامة الإنسانية مداه المتسفل في هذا العصر، حتى لقد اتخذت أم جعفر البرمكي للأمين بن الرشيد الجواري الحسان، وألبستهن ملابس الغلمان، وبعثت بهن إليه، فأبرزهن للناس من الخاصة والعامة، وأطلق عليهن اسم «الغلاميات» كما يقول المسعودي في كتابه «مروج الذهب».

ويقول الشابشتي في كتابه «الديارات»: إن «عريبا» المغنية كانت وصيفة للأمين، وكانت تلبس ملابس الغلمان، وتقف على رأسه، وتسقيه الخمر.

وكان الفسق يتطور تطوراً خطيراً حتى انتهى الأمر بالمحتسب في اللاذقية، وهو والي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يجمع القحاب والغرباء من الفساق في حلقة كما

يقول القفطي في أخبار الحكماء، وينادي على كل واحدة منهن، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة الواحدة ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء، بعد أن تأخذ كل منهن خاتماً يسمى «خاتم المطران» ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها، وإذا وجد خاطىء مع خاطئة دون «خاتم المطران» عوقب.

ويذكر الجاحظ في كتاب «المعلمين» أن الأمويين كانوا يسمحون بخروج النساء مع الجند، ولكن الخراسانيين وعلى رأسهم أبو مسلم منع هذه العادة، وخرج الأجناد مع الغلمان، فتولدت عادة اللواط بين العرب لا سيما في الجيوش.

ولقد بلغت الأحوال السياسية مبلغاً مؤسفاً في ذلك العهد، إذ أن الخليفة العربي ـ على الرغم من مظاهر الأبهة والجلال المحيطة به ـ كان في حقيقة أمره أداة في يد الفرس الذين جاءوا بالعباسيين بعد انقلاب قام به أبو مسلم الخراساني. وعلى الرغم من المذبحة التي وجهها الرشيد نحو أعيان الفرس المتسلطين فقد بقي نفوذهم قوياً، وإن كان قد اتخذ طريقاً آخر ضد عقيدة الإسلام ذاتها، حيث تسلطت فلسفاتهم الإلحادية، وأرغموا المأمون على استفتاء العلماء على القول بخلق القرآن، ولكنه كان استفتاء قهرياً يراد به تقرير القول بخلق القرآن ومن ثم ينطلق المخطط نحو هدم قدسية القرآن، وإخضاعه للمشيئة الإنسانية شأنه شأن كل شيء خلق من أجل الإنسان.

لقد اشتدت هجمة الفرس على عقيدة الإسلام بقيادة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وأرغموا الخليفة المتوكل بعد المأمون على ضرب المعارضين من العلماء للقول بخلق القرآن، وكان ضرب الإمام أحمد بن حنبل في الحقيقة انتصاراً معجزاً للإسلام الشامخ العتيد من جهتين:

أولاهما: أن السلاح الفكري الذي احتج به الفرس لخلق القرآن واهياً لا يثبت أمام النقاش والفحص، ولذلك كان الضرب في مجال الفكر دون الحجة والبرهان إفلاساً واضحاً وهزيمة فكرية ظاهرة.

ثانيهما: أن صمود الإمام أحمد أمام المحنة لم يكن صمود أحمد بن حنبل، بل كان صمود الإسلام الذي تغلغل في كيان أحمد بن حنبل فتكلم بلسانه، أو منحه من القوة ما يصمد به أمام الجلد والتعذيب فكان صمود الإسلام باسم أحمد بن حنبل وهزيمته لجبابرة السلطان موازياً في المسيرة لصمود الإسلام وهزيمته لمعاول الهدم الساحرة التي تعمل في ضراوة لإسقاط أصلب عقيدة عرفها التاريخ الديني والسياسي جميعاً، ولكن الهزيمة الثانية كانت لقوى الإلحاد في العالم كله وعلى المستوى الشعبي لدولة بني العباس بصفة خاصة، بقيادة كبار العلماء وأطهرهم سجية وسريرة.

وكـان الهجوم على المستـوى الشعبي ممثلاً كمـا يروي حنبـل بن إسحاق في كتـابه المخطوط «محنة أبي عبد الله بن حنبل» في أن أحمد بن أبي دؤاد بعد هزيمته أمام العلماء لجأ إلى وسيلة شيطانية يؤسس بها عقيدة خلق القرآن من جيل آخر من المسلمين، فأصدر منشوراً يلزم معلمي القرآن في «الكتاتيب» أن يقرروا على الصبيان حفظ عقيدة القول بخلق القرآن إلى جانب حفظ آيات القرآن.

ولكن صف أهل السنة كان قوياً لا تقوى عليه هذه الأوهام الوافدة على صورة ثقافات ومـذاهب ومترجمـات وبـدع وأهـواء تلقن مشـافهـة، أو تملى على طـامـع من القـراصنـة المحترفين.

وزاد من قوة أهل السنَّة انحياز المدرسة الجديدة التي تمزج بين نص السنة وروحه في أعمق مراتبها وهم العلماء الزهاد الأوائل الأبـرياء من كـل دخيل من النـظريات أو الأقـوال الموهمة المتشابهة. وكان رأس هذه المدرسة الحقيقي هو الحارث بن أسد المحاسبي الذي سبق الغزالي بمزج الفقه الإسلامي مع عنصره الروحاني والنفسي، فجاء أستاذاً فريداً في بابه، سابقاً في منهجه لم نعرف له نظيراً سبق عليه، ولا لحق بـه في مضماره كمنهـج عميق من التحليل النفسي لأول مرة في التاريخ، واستخدام هذا التحليـل النفسي في خدمـة شريعـة الإسلام لأول مرة في الفكر الديني على الإطلاق.

نشأ الحارث في بيت علم وثراء. فأبوه كان واسع الثراء، وكان معنياً بالفكر الديني، إلَّا أنه كان قدري المذهب، ولم يكن سنياً مستقيم الطريقة. ولكن الحارث على أي حـال فتح عينيه على الحياة فرأى أباه من رجال الفكر، مما كان له بالتأكيد أثره على اتجاه الحارث نحو الفكر هو الآخر، ولكن لا على وجـه التقليد الأعمى، وإنمـا كان اتجـاهه يكشف عن شخصية مستقلة، وعقل يأبى إلَّا العمل والدوران في أفلاكه حتى يرسم معالم طريقه بنفسه، ولا يرسمه له الآباء ولا العشائر.

وانتقل الأب بأسرته وفيهم الحارث إلى بغداد، وبين مدارسها، ولفظها الجدلي، ودار حكمتها، وحركتها الثقافية التي لا تهدأ، والتي كانت مداً قوياً لفتوة الإسـلام في الحقيقة، وفجأة تبدأ أول البوادر الفريدة في شخصية الحارث المحاسبي الفريد هو الآخر. فلقد اختار الولد طريق السنة معارضاً قوياً لابيه، وظهرت تلك المعارضة علانية عند «باب الـطاق» في بغداد، إذ أمسك الحارث بأبيه هناك، وجمع حوله الناس، وقال له على مسمع منهم: طلق أمي، فإنك على دين وهي على دين غيره. وذلك أن الرجل كان قدرياً، وأن ابنه كان يؤكد كفر القدرية.

لم تمنعه حشمة الأبوه عن إعلان رأيه، وإنذار أبيه، ما دام الأمر يتصل بالإسلام الذي بدأ يسري في أوصال الحارث، ليجعل منه هو الآخر صورة متحركة مجاهدة قويمة قوية الحركة والكلمة، صادقة صدق الإسلام، ونقية نقاءه، ومنصورة بنصر الله القاهر.

ملامح شخصيته:

حينما حدد الحارث الفتى اتجاهه السني الإسلامي، كان يمكن أن يكون سنياً تقليدياً كغيره من أهل السنة من العلماء: يعني بالرواية والدراية في الحديث، وينسلك في إطار مذهب من المذاهب الأربعة، وغاية ما يصل إليه أن تكون له اجتهادات مقيدة بمذهبه، أي اجتهادات في الترجيح، وليست مطلقة لا تتقيد بأفكار إمام بعينه. وكان يمكن أن يلجأ إلى حلقات بغداد فيحدد الفرع الذي يتخصص في دراسته بتوسع من بين فروع العلم السني المعروف، من الحديث أو التفسير أو الأصول أو غيرها، ثم لا شيء وراء ذلك.

ولكن الفتى الذي لم يقلد أباه، والفتى الذي أعلن كفر أبيه كما يرى دون أن يتقيد بخلاف العلماء في كفر القدرية فيلتمس لأبيه وجهاً من وجوه الإسلام على أساسه، هذا الفتى ليس هو الذي يندفع مع صف الطلاب حتى يختار مكانه من الصف دون بحث ولا فحص ولا تدقيق.

لقد خلا المحاسبي إلى نفسه زماناً طويلاً يفكر، ويقلب أمره على وجوهه، ويحاول أن يجد مكانه في صف أهل السنة بشروط محدودة هي:

١ ـ أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع أفاعيل الصحابة ومسالكهم.

٢ ـ أن يكون بعيداً عن الخلاف، لأن الأمة في حاجة إلى اتفاق، وليست في حاجة إلى الخلاف.

٣ ـ أن ترتبط تعاليمه ودراساته وسلوكه بعالم الآخرة، فلا تنفصل البداية عن النهاية.

وبحث طويلاً، وانتهى به البحث إلى أن حلقات الحديث يسيطر على أهلها الإعجاب وحب الشهرة. وأن علماء الفقه يعيشون بين دوامة الخلاف، وحب الانتصار للرأي، وأن علماء الآخرة من أهل السلوك ليسوا كما يريد: من الأخفياء الأتقياء الذين يرجحون الآخرة على الأولى.

هو إذن يريد بيئة علمية ملتزمة بسلوك الصحابة، بعيدة عن الخلاف، تؤثر التواضع والخفاء، ولا تميل إلى الشهرة، وتعنى بالجوانب الروحية عنايتها بالجوانب الشرعية. وكان مطلباً عزيز المنال، طال به الزمان في البحث عنه، حتى أصيب بما يشبه أن يكون أزمة

«اكتئاب نفسي» حددها في مقدمة كتابه «الوصايا» حيث ردد قوله: «فعظم همي وغمي لفقد الأدلاء، وانطويت على نفسي».

وبعد بحث طويل اهتدى إلى من يريده مرشداً له في طريق الآخرة ممن يؤثر الخفاء، والدار الآخرة على الدار الأولى. ولكنه لم يحدد لنا اسمه، كما لم يحدد لنا شيوخه في علوم الشريعة الأخرى، اللهم إلاَّ شيوخه في الحديث حيث ذكرهم لنا في إسناد، لما رواه من الأحاديث.

ويبدو أنه درس كل العلوم التي لا تحتاج إلى السند بنفسه، دون أن ينتسب إلى شيخ معين، ولم يلجأ إلى الشيخ إلاَّ في طريق الآخرة. وهنا تتحدد شخصيته المستقلة في:

١ ـ أنه كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود طيب الله ثراه: كان مجتهداً مطلقاً في الشريعة، لأن الوضوء كما حدد، في كتابه «فهم الصلاة» لا يتفق مع الوضوء كما حدده مذهب من المذاهب الأربعة، بل إنه تتبع أسلوب الوضوء عند الرسول ﷺ وعند أصحابه، وسجل من مجموع ذلك صورة متكاملة لا شأن لها بالصور التي حددها الأئمة الأربعة المجتهدون.

٢ ـ أنه عني بتدوين (فقه ما لم يدونه الفقهاء) في أبواب من كتبه، مثل: من أم قوماً فألزم قلبه الحذر في القراءة، وباب الشهرة، والاحتساب في سرور المسلم، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم، ومذاهب الورع، وأغاليط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الأبواب التي أغفلها الفقهاء، ولا يدونها إلاَّ مجتهد مطلق مستقل بعلمه ومذهبه.

٣ ـ أنه نقد بشدة نفس المدرسة التي آثرها وهي المدرسة الروحية في كثير من آرائهم، ورماهم بالغلظة والجهل بالأخبار فيما يتصل بالمكاسب وبالورع، وسجل ذلك كله في كتاب المكاسب[1]، مما يؤكد أنه كان مستقلاً، لم تفن شخصيته في شخصية المدرسة التي انتسب إليها كما هو شأن الغالبية العظمى من العلماء.

٤ ـ أنه لا يعتمد على عموميات مشهورة في إصدار أحكامه، وإنما يعتمد على المشاهدة الشخصية، ومن أجل هذا عنى المحاسبي بدراسة أحوال مجتمعة بنفسه، كما يبدو ذلك واضحاً من حديثه عن الغزاة والتجار والقراء والصوفية في كتابه هذا الذي نقدمه للقراء، إذ أنه لم يصدر حكماً إلاَّ بعد مشاهدة وسماع شخصي، وهو سبق لم نعهده في الفقهاء ولا في علماء السلوك إلاَّ نادراً من بعده.

---

(١) سبق لنا نشره.

٥ ـ أن ذاته الداخلية كانت من القوة والمتانة بحيث لم يحتج إلى أن يضفي على ظاهره ما يقوي شخصيته، فلم يحفل بالشهرة لا هو ولا مدرسته بين علماء بغداد ومدارسها، وذلك على الرغم من أن اجتماع تلاميذه به في حلقة درسه كان على صورة لم تعهدها مدارس العلم، إذ كان الوقت المختار له ولهم هو: ما بعد العشاء الآخرة حتى صلاة الفجر. وهذا عمل كان يمكن استغلاله في الدعاية والشهرة، ولكنه لم يفعل لغناء ذاته الداخلية عن كل شيء إلّا الإيمان والحب والنصح وغيرها من مقومات الشخصية السوية المستقيمة.

٦ ـ لم يكن كغيره من العلماء يحاول الانتصار لنفسه بما يشبه الحق من البراهين الملتوية، لا سيما إذا ورد عليه النقد ممن هو أنزل منه علماً أو قدراً.

قال الحارث: عملت كتاباً في المعرفة،فأعجبني، فدخل عليّ شاب عليه ثياب رثة،وأنا أنظر في الكتاب مستحسناً إياه،فقال لي: يا أبا عبد الله المعرفة حق للخلق على الحق، أو حق للحق على الخلق؟ قلت: حق للخلق على الحق. قال: هو أولى أن يبذلها لمستحقيها. قلت: بل حق للحق على الخلق. قال: هو أعدل من أن يظلمهم. فأخذت الكتاب **وحرقته**، وقلت: لا أعود أتكلم في المعرفة أبداً.

فلو أن عالماً من المحدثين حدث له ذلك لملأ الدنيا صراخاً وعويلاً لينتصر لنفسه بالباطل فضلاً عن الحق، في الوقت الذي كان فيه للحارث وجه للدفاع عن نفسه وعن كتابه، لأنه يتحدث عن المعرفة من حيث التربية والشريعة والأمر والنهي، أما الشاب فيقصد المعرفة من حيث القسمة الإلهية الأزلية، وهي الحقيقة، فاختلف الوجهان، وكلاهما مصيب، ولكن الحارث كما قلنا قوي في ذاته الداخلية، وليس في حاجة إلى لجاجة ولا جدال ليثبت هذه القوة، أو ليضفي على نفسه قوة زائفة من الغرور والإعجاب.

٧ ـ لم يكن عالماً متخصصاً يغلق فكره على فرع معين من فروع المعرفة، وإنما كان رجلاً متعدد المواهب، مجيداً في كل ما اقتحمه من ميادين المعرفة، فهو فقيه، محدث، أصولي، متكلم، عالم بالتحليل النفسي، خبير بالمجتمع وتحركاته الظاهرة والخفية، متطلع إلى مذاهب غيره من الفقهاء والمفكرين في أرجاء الإسلام، ناقد بصير لا سيما في قضايا الصوفية التي بدأت تختلط في عصره، ويسود أهلها في بعض أحوالهم جهل بالحديث والأخبار، وغلظة في إصدار الأحكام.

٨ ـ كان ملتزماً بكل ما يقول أو يكتب... فلم يكتب حرفاً إلّا التزم به سلوكاً، ومن هنا آثر الورع يوم مات أبوه، وهو في حاجة إلى دانق كما يقول الجنيد البغدادي، فرفض ميراث

من أبيه، لأنه كان يرى كفر القدرية، وليس بين أهل ملّتين توارث. ورغم الخلاف في كفر القدرية، ورغم عدم مسئوليته عما شاب مال أبيه من الحرام، فإنه آثر الورع، وفضّل الجوع على أن يقبل مالاً فيه شبهة.

* * *

والغريب في أمر المحاسبي، والذي لم أستطع له تفسيراً يقوم على سند مكتوب ومأثور هو أنه نجا من محنة القول بخلق القرآن، وكان معاصراً لها، وكان رأساً من رؤوس العلم، وصاحب مدرسة كبرى يمكن أن يفيد منها القاضي أحمد بن أبي دؤاد في نحلته التي انبرى لنصرتها.

كان المحاسبي يهاجم المعتزلة وغيرها من الفرق، وكان هجومه على المعتزلة وغيرهم من أسباب الخلاف بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل، حيث كان يرى أحمد إهمال هؤلاء المارقين، ويرى الإمام المحاسبي الهجوم عليهم، وتفنيد أفكارهم، وتعريتها أمام الجمهور.

ونحلة القول بخلق القرآن كانت نحلة اعتزالية في أصلها وفرعها، وهذا عدو من أعدائها، فلماذا لم يحمل مع من حمل للمحنة، ولماذا لم يتعرض للتعذيب كما تعرض غيره من العلماء؟

ولكي نجيب على هذا التساؤل يجب أن ندرك أن غير المحاسبي من ذوي الشأن في ذلك العصر لم يتعرضوا هم الآخرون لأذى السلطان في شأن خلق القرآن، من أمثال: بشر بن الحارث الحافي، والسري السقطي وغيرهما من أصحاب مدارس التصوف. ولكن الفرق ثابت بين هؤلاء وبين المحاسبي، فلا السري ولا الحافي ولا غيرهما من رجال التصوف كانوا يهاجمون المعتزلة ويكتبون في تجريحهم الكتب، ويعقدون حلقات العلم. بل كان نشاطهم مقصوراً على السلوك، وعلى بعض روايات السنّة... فالقول بأن المحاسبي كغيره من هؤلاء لم يكونوا موضع اهتمام السلطان في شأن المحنة قول غير مستقيم، من جهة أن المحاسبي إمام مجتهد محدث متكلم له باع طويل في تسفيه المعتزلة أفزع الإمام أحمد نفسه.

والذي نستطيع أن نقرره الآن: أنه ربما اعتمدت السلطة على النزاع الذي كان قد ثار بين أحمد وبين المحاسبي فظنت أنه لا خطر من المحاسبي... أو أنهم عرفوه بما اشتهر عنه من الصلاح، وحب الخفاء والنفور من اجتماع الناس حوله، فلم يروا في رأيه مغنماً لهم، ولا تأثيراً في الناس، ما دام الناس لا يشكلون اهتماماً للمحاسبي في حياته وهو الذي يقول: «والله لو أن نصف الخلق قد بعدوا عني ما استوحشت لبعدهم، ولو أن النصف الآخر اقترب مني ما أنست بقربهم».

كان المحاسبي معنياً بإصلاح البواطن، وكان أحمد بن حنبل معنياً بـظاهر الشـريعة، ومن هنا كانت فتنة خلق القرآن ألصق بظاهر العلم منها بباطنه وخفاياه، فكان أحمد مقصوداً بها، وكان المحاسبي بعيداً عنها هو وأمثاله رغم أنه رجل حديث وفقه وكلام وهجوم على كل من انحرف عن خط أهل السنة. ولكن جمهور الرواية والدراسات الفقهية جمهور عريض لا يتهيأ مثله في اتساع قاعدته للدراسات السلوكية والنفسية بأي حال من الأحوال.

محاولات لتشويه المحاسبي:

إنه داء قديم في البشر، هو أن يستظهر الإنسان برأي كبير من العلماء ليهـدم عالمـاً آخر... ولكن الله تعالى إذا أراد إبطال حجة هذا الهادم المخرب أجرى على لسانه وقلمه دليل خطئه.

قال الإمام الذهبي في كتابه[1]:

«قـال الحسين بن عبـد الله الخـرقي: سـأل المـروذي عمـا أنكـر أبـو عبـد الله على المحاسبي فقال: قلت لأبي عبد الله: قد خرج المحاسبي إلى الكوفة وكتب الحديث فقال أنا أتوب مما أنكر علي أبو عبد الله. فقال ليس لحارث توبة، يشهدون عليه بالشيء ويجحد، إنما التوبة لمن اعترف، ثم قال: حذروا عن حارث.

«وقال أبو بكر بن حماد: إن الحارث مر به ومعه أبـو حفص الخصاف. قـال: فقلت له: يا أبا عبد الله تقول: إن كلام الله بصـوت ؟ فقال لأبي حفص: أجبـه. قال أبـو حفص: متى قلت: بصوت، احتجت أن تقول: بكـذا، وكذا. فقـال للحارث. فمـاذا تقول أنت؟ قـال: قد أجـابك أبـو حفص. قال أبـو عبد الله بن حنبـل: أنا من ذلـك اليـوم أحـذر عن حارث».

والعجب هنا من أمور منها:

١ ـ أن المروذي نفسه هو الذي روى في مسائله عن الإمام أحمد أنه كان يتوقف طويلاً بحكم ما ركب فيه من سليقة الورع في تجريح راوٍ من الرواة العام والعـامين احتياطـاً لدينـه. فكيف يتوقف في تجريح راوٍ من الرواة ثم يسارع إلى إغلاق باب التوبة على مسلم قبل أن يغرغر مخالفاً بذلك رسول الله ﷺ وإجماع الأمة على أن التوبة صحيحة من أي مسلم ما دامت روحه لم تبلغ حلقومه... هذا مستحيل تماماً في حق الإمام أحمد ونكاد نقطع بأن هذا الخبـر مكذوب عليـه، لأنه يخـالف ما تـواتر عنـه من الدين والـورع والخوف

(١) انظر تاريخ الاسلام جـ ١٣ (مخطوط رقم ١٣ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ٤٥ وما بعدها).

والتوقف والعلم والدراية بالسنة من جميع وجوهها.

٢ ـ قول الرواية عن الإمام: إن التوبة لمن أعترف قول غريب عن مسلكه وعن علمه وعن إحاطته بأحكام الشريعة والعقيدة. فالتوبة أمر بين العبد وبين ربه، ولم يشترط أحد أن تكون التوبة بعد اعتراف علني للناس بالدين، فتلك هي الفضيحة التي نهى عنها الإسلام أشد النهي، ولا نعلم شيئاً اسمه الاعتراف إلَّا في النصرانية المتأخرة. بل هو في الإسلام اعتراف العبد لربه بالذات سراً فيما بينه وبينه ثم التوبة. ومن هنا فإن هذه الرواية هي الأخرى تلحق بأختها في البطلان والتزييف على الإمام أحمد.

والعجيب أن الذهبي نفسه شك في رواية أوردها هو في تذكرته وأوردها الخطيب في تاريخ بغداد، خلاصتها أن الإمام استمع إلى المحاسبي من حيث لا يراه في بيت إسماعيل السراج أحد تلاميذه، ثم قال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل هذا الرجل، ومع ما وصفت لك فلا أرى لك صحبتهم... وعلق عليها الذهبي بقوله: وهذه القصة صحيحة السند لا تقع على قلبي.

وإنما نفر قلبه مما فيها من تناقض لا يليق بعقل كبير مثل عقل الإمام أحمد... ومن ثم فإن قصة الاعتراف، وقصة إغلاق باب التوبة أدخل في نطاق إنكار الذهبي نفسه من هذه القصة... فإذا تناقضت الروايات على هذه الصورة تساقطت وبقي جوهرها، وهو: أن المحاسبي وأحمد بن حنبل أخوان على طريق السنَّة، لا سيما وأن المحاسبي كان شديد الإنكار على أوهام الصوفية ودعاواهم أن بعضهم يصلي في أماكن متعددة، أو يخاطب الملائكة وأرواح الصالحين، إلى غير ذلك من الأوهام التي بدأت تطل برأسها في عصرهما.

مقامه في العلم والمعرفة:

وصفه أبو نعيم الأصفهاني في الحلية فقال: المشاهد المراقبي، والمساعد المصاحبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، كان لألوان الحقائق شاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً، وتصانيفه مدونة مسطورة، وأقواله مبوبة مشهورة، وأحواله مصححة مشهورة، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، ومن الخوض في الفصول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً، للمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً.

«وقد كان متكلماً فقيهاً محدثاً، حدث عن يزيد بن هارون وطبقته، وروى عنه أبو العباس بن مسرور والطوسي وطبقته».

وقال عنه الخطيب البغدادي: «أدر من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وله كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهم. وكتابه في الدماء هو الذي عول عليه من بعده في شأن الدماء التي جرت بين الصحابة».

ومنزلة المحاسبي لا تقتصر على أنه كان جامعاً للعلم حافظاً له، عاملاً به فحسب، ولكنه في الحقيقة كان صاحب مدرسة متميزة يمكن وصفها بأنها مدرسة الكشف عن الدقيق عن علة الأمة الإسلامية التي كانت قد أصابتها ففرقت كلمتها، ودفعت بها بعيداً عن فطرة الإسلام التي جاد بها رسول الله ﷺ.

كان الإمام أحمد بن حنبل يجاهد في ميدان السنة وتنقيتها من الدخيل والموضوع ومن التدليس والكذب الذي انبنى عليه بعض الأحكام المغرضة.. كانت هناك أكداس... من الأحاديث الموضوعة التي وضعت تأييداً لمذاهب سياسية أو عدائية للإسلام. ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢ ـ ١٣٤: «أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الروافض». ويقرر شريك القاضي أن الرافضة كانوا يضعون الحديث ويتخذونه ديناً. ووضعوا الأحاديث في ذم معاوية، ووضع أتباع معاوية الأحاديث في مدحه، ومن وراء أولئك الزنادقة يضعون الحديث تأصيلاً لزندقتهم، فيروون أن الله ينزل عشية عرفة يصافح الركبان، ويعانق المشاة، وأقر عبد الكريم بن أبي العوجاء بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم الحلال. إلى غير ذلك مما لا يسعه مقامنا هذا.

كان الإمام أحمد زعيم المدرسة السنية التي تكلفت بوضع الضوابط وفحص الأسانيد والمتون لتنقية السنة من هذا الركام المكذوب والخطير على شريعة الإسلام.

وكان المحاسبي زعيم المدرسة التي تكشف العلة التي أصابت النفس المسلمة فحولتها إلى نفس ضعيفة لا مكان فيها للوم ولا للرضا والطمأنينة وإن كان ظاهرها مطمئناً وراضياً... كان الورع في عصره نادراً، وكانت المعرفة بالأصول الإسلامية عزيزة، وكان الجهل بعلل النفوس فاشياً، وقد كشف المحاسبي عن كل ذلك في مقدمة كتابه «الوصايا» فقال:

«قد انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها. فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القادر وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز